عنف العولمة ورهانات الغيرية

د /بومحرات بلخير – جامعة مستغانم

تمهيد:

تعد العولمة من المفاهيم، التي لاقت رواجا في الوقت الحالي وانقسم المفكرون حولها بين مؤيد ومعارض ومشكك لها. لكننا نحن في هذا المقام ولدواعي حيادية، كي نضمن نزاهة وموضوعية البحث.سنعمل على الابتعاد عن الأحكام الجاهزة، التي تؤيد أو تعارض العولمة كما يفعل الساسة، ونلتزم بما يفرضه علينا اختصاصنا السوسيولوجي، مستعينين بأداة الملاحظة لنفهم ما يجري في هذا العالم الذي أقل ما يقال عنه أنه عالم سريع التحول، والتغير، وشديد التعقيد.

فالعولمة كمعطى عام وزئبقي، يقتضي منا على الأقل ضبط أطراف المعادلة فيها، من خلال مضمونها وذلك بالإحالة على سياسيتها ومنهجها في استخدام المؤسسات الدولية، من هيئات سياسية واقتصادية ومالية وثقافية، والفاعلين فيها باعتبارهم صناع القرار ومهندسي سياسة العالم عبر المؤسسات الدولية من جهة، والقابعين تحت هذه السياسة، فأحيانا يسمون بالمولاة أو المارقين أو المعارضين وما إلا ذالك من الأسماء والمسميات، التي تترجم أسلوب الهيمنة بين من يسيطر ومن يسيطَر من جهة أخرى، وبهذا يحضرنا سؤال في هذا الإطار مفاده، هل نحن هنا أمام سياسة عالمية أم عولمة؟.

ولهذه الدواعي ولتجنب مبدأ التعميم، والعمل على فك التعقيد متى كان الأمر متاحا. سنحاول ضبط المنطقة التي تجري فيها معمعات العولمة، متخذين من المنطقة العربية مكان لفهم إستراتجية العولمة وما مدى تأثيرها على المنطقة العربية، أخدين بعين الاعتبار الخصوصيات المختلفة والمتنوعة بين بلد عربي وآخر، في رسم معالم متجانسة للإجابة على مآلات العولمة في المنطقة العربية.

فإذا سلمنا بهذا المبدأ، فأهم مآلات نظام العولمة على العالم العربي، تتخذ أبعاد سواء في الشق السياسي، نجد في الوطن العربي على سبيل التشبيه لا الحصر، كثرة النزاعات التي تهدد وجود الإنسان في بقائه سواء اتخذت شكل حرب (سوريا اليمن العراق ليبيا)صراعات ذات بعد طائفي (مصر لبنان)صراعات سياسوية ومنفعية تقوم على مبدأ المحاصصة، وتأجيل الانفجارات الاجتماعية عن طريق السياسة الشعبوية، وهذا ما نجده في باقي الدول العربية. وفي هذا الإطار نرى حسب تصورنا أن المحدد الرئيسي المغذي لهذه الأزمات والنعرات، هو قضية الوضع السياسي في هذه الأوطان الذي يفتقد إلى مسار الميلاد الحقيقي للديمقراطية.

عرفت بعض الأقطار العربية في الآونة الأخيرة بعض التحولات النوعية في إصلاح النظام السياسي، سواء اتخذت طابع الإعتصامات في الساحات العمومية

مطالبين النظام بالرحيل، أو اتخذت شكل صراع مسلح غلب عليه في البداية لغة تبادل الاتهامات والشتائم، وسرعان ما تحول إلى تبادل بإطلاق النار، حيث قتل وشرد وجهل الإنسان، وهذا ما يطلق عليه مرحلة الربيع العربي الذي تداولتها وسائل الإعلام، باعتبارها فال خير على مسار الديمقراطية في الأوطان العربية، ونموذج حي تقتضي به الدول الباقية، التي كانت مناعتها قوية في عدم الإستجابة للوضع سواء من خلال علاقاتها الخارجية، عن طريق الالتزامات اتجاه مؤسسات الدولية- المولاة- أو نتيجة تحصين جبهتها الداخلية وذلك بالاستجابة للمطالب الشعبية.

ففي هذا الوضع الحساس المليء بالأحداث السريعة والمتسارعة، استطاعت الأقطار العربية أن تفكر في إصلاح منظومة نظامها السياسي، وذلك بوضع حد لسيادة الرجل الواحد، الذي ينوب على الشعب، ويتخذ من الانتخاب وظيفة سياسية يدعم بها بقائه القيادي ويضمن توريته لباقي عصبيته، عوض أن يكون الانتخاب حق يكتسبه المواطن، ليعبر به عن تنظيم مؤسساته السياسية، ليبلور مشاريعه وأحلامه التي يطمح إليها.

فأمام معادلة ما وجب أن يكون عليه الإصلاح السياسي(اليوتوبيا)، وما هو كائن(عالم المعيش حسب هابرماس)، فقد زاغت هذه الأحلام التي حملها الإنسان في كيانه وروحه، وضحى من أجل هذه الآمال بحياته سواء بالرضا والصبر، على حرق الجسد أو تحمل عبء المضايقات، التي تتخذ شكل المعاقبة والمراقبة من القوى السياسية القائمة.

كل هذه الأماني وهذه التضحيات التي كانت غايتها إحداث ثورة حقيقية، تستجيب لهذه المطامح والتطلعات الشعبية المنادية بالتمدن والتحضر، ولسوء الحظ، جابه هذا المشروع الطموح إعصار وطوفان مدمر أتى عليه ولم يبق منه شيء في نهاية المطاف. وتحصيل حاصل تحولت هذه التوارث، التي ناشدت الديمقراطية، والعدالة الاجتماعية، والقانون فوق الجميع، إلى فورات[*]اتخذت من الديمقراطية وسيلة، لتحولها إلى سراب مليء بالفوضى والانقسام المتاطحن، الذي يبيد الأرض والمجتمع، وتبقى في نهاية المطاف بيادق، تتحكم بها الدول الكبرى، التي لا تتوانى في المتاجرة بدماء البشر لرسم معالم وخرائط جديدة في مناطق العالم، وهنا تزيد حدة الغموض ويظهر الخبث والنفاق السياسي على الطريقة الميكيافلية التي تقوم على مبدأ السيطرة، وقانون الغاب، متخذة شعار الغاية تبرر الوسيلة، البيان الساطع على نواصيهم، والشعار المعبر عنه أثناء اجتماعاتهم ومجالسهم، وكأنه تسبيح أو ترتيل يردد أثناء تأدية الطقوس. ولو كان ذلك على حساب، التكلفة الغالية والباهظة من يتامى وتكالا ومرضى وموتى، كل هذه المظاهر التي لا تعبر إلا على مشروع تصفية الإنسان وإبادته عن بكرة أبيه، والعمل بالموازاة وبدون هوادة ولا تردد، على بعث وإعادة نشر العبودية، في توب جديد. من خلال تزويد أبناء البلد الواحد بالأسلحة،

وتغليب طرف على طرف، من أجل إطالة العنف وتعميق الجروح وتحطيم المكتسبات التي هي ملك للإنسان.

وبهذا نحن نسلم بصحة الفرضية المعاشة التي تقوم على العلاقة الطردية، بين اتساع نطاق العولمة [1] واكتساحها لباقي معمورة العالم ومنها المنطقة العربية من جهة، وارتفاع درجة العنف والتدمير المصاحب لهذه المجتمعات العربية، والتي تتخذ أشكالا عديدة ومتنوعة، كالفقر المجاعة الأمراض الفتاكة الحروب بصيغة مختصرة تحطيم الإنسان وإبادته عن بكرة أبيه من جهة أخرى.

هذه المعادلة الطردية تقودنا إلى جملة من التساؤلات هي على النحو الآتي:

لماذا هناك غموض يكتنف دلالة وفعالية مفهوم العولمة، على الرغم أنها في الواقع تشير إلى كل شيء ولكن بدون أي تحديد وتدقيق؟

كيف لازم، الفقر، والتخلف، والحروب، والعنف، المجتمعات العربية، نتيجة وجود إرادة هيمنة تتخذ مفهوم العولمة أداة لإبقاء هذه النعوت وسمة على جبين المجتمعات العربية الهامشية- حسب تسمية سمير أمين- على الرغم من أن هذه الأخيرة لها إرادة قوية في إدراك معالم الحداثة والانفتاح والتقدم؟

ما هو الحل والبديل لوضع حد لهذه المعاناة، وتعويضها بمشروع أخلاقي يضمن كرامة الإنسان، ويضع حد للمعطى المادي الأناني؟

الجواب على هذه الأسئلة يقتضي وضع خطة، تنظم فحوى هذه الورقة لإيضاح الملابسات وفك التعقيدات، وتهديم المسلمات التي عودتنا عليها الصحف والمدارس والإعلام لإعادة إنتاج أفكار مغلوطة وغير دقيقة لضمان وجودها والحفاظ على ديمومتها، والقضاء بلا شفقة ولا رحمة على المشككين فيها لا لشيء، سوى للإبقاء على الوضع الراهن الذي يكرس منطق المركز والتابع، وذلك بتحطيم آليات الفهم التي تسعى لوضع حد لهذه الثنائية سواء تعلق الأمر بمشروع التحديث أو التنمية.

أولا- العولمة بين غموض المعنى وتعدد التأويل:

يقتضي منا هذا العنصر ضبط المسار التاريخي لميلاد هذا المفهوم"فمذهب العولمة وردتا أولا في كتاب مغمور نشر عام 1944، في حين أن مصطلح العولمة دخل القاموس لأول مرة عام 1961"[2]. كما اهتم بهذا العنصر كبار المنظرين والمفكرين نذكر منهم على سبيل التشبيه لا الحصر، المفكر الأمريكي ذات الأصول اليابانية، وهو من المفكرين المحسوبين على الاتجاه الليبرالي، الذي يبتهج بانتصار الليبرالية على باقي الإيديولوجيات الأخرى باعتبارها أرقى نموذج لتطور الإنساني بعد أفول الشيوعية، وأن القيم والمعايير الأمريكية، قد تمكنت من غزو العالم. كما يرى أن العولمة اتخذت شكل نهاية لتاريخ، والذي يراه الواقعيون - لهم أطروحات جديرة بالعلمية والموضوعية أثناء الحرب الباردة- أن مسالة فكرة النهاية بدأت مع

المفكر صاحب مصطلح "نهاية الايديولوجيا السياسية، ومع المفكرين الأمريكيين ونخص منهم ووالت روستوWalt Whitman Rostw[*](1916 -1986) الذي يرى تراجع الشيوعية وتدهورها في الإتحاد السوفياتي، راجع إلى الأعمال المعادية للإنسان التي ارتكبها ستالين وهذا ما يؤكد بقوة أفول مفهوم الإيديولوجية.

كما يرى هنري لوفيفرHenri Lefèbvre (1901- 1991) أن الإيديولوجية لا تكون إلا في أوساط الطبقة المجتمعية لأنها بحاجة إلى هذه الكثافة الدعائية لتضمن وجودها. أما في النظام الاشتراكي لا توجد طبقات متفاوتة بل متساوية، وهذا هو سبب أفول الإيديولوجية وتعويضها بالعدالة الاجتماعية، التي تضمن الوضوح والشفافية بين افراد المجتمع. في الثمانينات يأتي فوكوياما بنهاية جديدة سماها نهاية التاريخ، رابطا هذا بزوال الشيوعية وتفكك المعسكر السوفياتي.

وجود هاتان النهايتان بهذا الشكل الخطي والسريع، يوحي لنا معنى مفاده أن نهاية الأولى كانت غايتها القضاء على المنافس الشيوعي، واشتركت في هذا القوة الأمريكية بمساعدة أوروبا الغربية، أما النهاية الثانية فهي تثمين وإبراز للقدرات الامريكية على أنها شرطي العالم بامتياز، تأمر وتنهي كيفما تشاء وبالتالي فهي نهاية لكل من يخرج عن السياق الليبرالي الغربي.

ينظر صاموئييل هنتغتون للعولمة بأنها شكل من أشكال الصراع والصدام الحضاري وهذا ما يشير إليه، لكن على الرغم من الاختلافات في التنظير، إلى أنهم متفقون على أن معالم العولمة بدأت بجلاء بعد انهيار الإتحاد السوفياتي، وبروز الاقتصادية الليبرالية، التي انتصرت في صراعها على الاقتصاد الموجه فإدغار موران يرى أن" مسار العولمة الإقتصادية أصبح شمولي، بعد سنة 1989، مع اتساع الاقتصاد النيوليبرالي العالمي"[(3)].

فإن كنا متفقين على بداية سيرورة العولمة رغم وجود بعض التحفظات حول هذا الطرح، إلا أننا سنواجه في هذا العنصر كثرة وتنوع التعريفات التي يسلم بها الباحثون حول مفهوم العولمة، فأحيانا تسمى السياسة العالمية، وأحيانا أخرى القولبة أو الأمركة، وهي من الأسماء التي أصبحت تشكل موضة العصر، فهل هذه المفاهيم تتشابه في دلالتها مع بعضها البعض؟هل للعولمة دلالات متعددة؟ ماهي تمظهراتها على الأفراد والجماعات والطوائف والدول؟ماهو البراديغم التي تتابعه العولمة في رسم أطرها، وتسطير منهجها، في رصد حركة العالم أخدين بعين الاعتبار الإطار النظري التي تشتغل عليه، والزمان والمكان التي تنشط عليه؟

نحن في هذا العنصر طرحنا سيل جارف من الأسئلة الكثيرة والكبيرة، دون أن نلتزم بالإجابة على مجموعها، وهذا ما يسمح لنا أن نختار ما نراه مناسبا لفهم الخلفيات النظرية التي تقوم عليها العولمة، باعتباره الهدف المنشود الذي نتوخاه من

خلال هذا العنصر. ونظرا لطبيعة الهدف المحدد، سنحاول الإلمام بأهم الأطر التي هندست معالم السياسة العالمية[4]، وذلك بالإحاطة بأهم المصطلحات والتنظير المتداول في مجال السياسة العالمية المتداول، ونقارن هذا كله بمضمون العولمة، وبهذا نحن نضع القارئ أمام معطيات وتنظير أولي ثري وملم بما سبق العولمة، التي مازلت في إطار التشكل والتمأسس، كي تساعده في فهم توظيف العولمة في الوقت الحالي، وكيفية تشكلها انطلاقا من معطى السياسية العالمية التي كانت سائدة أمامها. ومن هذا سنحدد الأطر النظرية لسياسية العالمية ونربطها بالعولمة متى كان الأمر ضروري وملح، لنؤكد أواصر الترابط، ولنفك درجة التعقيد من خلال هذين المتغيرين. وذلك بتحديد الإطار الواقعي باعتباره عنصر يتلاءم مع طبيعة التحليل لموضوع العولمة[5] ، وفق مقاربة سوسويولوجية.

<u>الإطار النظري الواقعي[6]</u>. يعمل هذا الإطار النظري الواقعي، وفق أطر نظرية وتاريخية، ويعد أيضا فضاءا خصبا وغنيا بالمداخل الفكرية والنظرية، الذي له سندا تاريخيا، يمتد منذ الحضارة الأثينية ويحتوي هذا المذهب على عنصرين هما، الدولة، البقاء.

تعد الدولة الصمام الأمام، الذي يقوم عليه الإطار الواقعي، بمختلف اتجاهاته وأطره الفكرية. حيث أن الدولة هي العنصر الأساسي والفاعل، في رسم معالم السياسة العالمية. وأن العناصر الأخرى أقل تأثيرا منها. وهذا ما نجده عند هوبز في كتابه الثنين ، وعند ماركس عندما ينظر لنشأة الدولة فيرى "أن تقسيم العمل لا الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، هو الذي يفسر نشوء الدولة. إن هذه الفكرة المدعوة لتصبح فكرة أساسية في النظريات الاجتماعية المعاصرة عن الدولة، توجد بشكل واضح للغاية، فتقسيم العمل هو الذي يشترط، برأي ماركس، تشكل الطبقات الاجتماعية والدولة على حد سواء"[7]. وبهذا تبقى الدولة ملازمة للوجود الإنساني إن أخذنا بعين الاعتبار مسألة العمل وتقسيمه داخل المجتمع، وتبقى ركن مكين في السياسة العالمية لاحتوائها مفهوم السيادة. فهذه الأخيرة أهم مقوم تقوم عليه الدولة بإعتبارها الحاملة والحاضنة لمقوم السلطة السياسية، التي تنظم جهاز ومؤسسات الدولة، وتتمظهر في العنف الشرعي المطبق في الداخل، وتمثيل الدولة في الخارج من خلال تحمل مسؤولياتها اتجاه التزاماتها الدولية "فالعناصر الفاعلة الرئيسية على المسرح العالمي هي الدول، التي لا تعتبر عناصر فاعلة ذات سيادة من الناحية القانونية. وتعني السيادة أنه لا عنصر فاعلا فوق الدولة يستطيع أن يجبرها على التصرف بطرق محددة. وعلى العناصر الأخرى كالشركات متعددة الجنسيات والمنظمات الدولية جميعا أن تعمل ضمن إطار العلاقات ما بين الدول"[8]. لكن يؤاخذ على هذا العنصر أنه يبالغ

ويعظم من شأن الدولة وسيادتها لكن نجد العديد من دول المعمورة التي تحتوي على سيادة وهي لا تستشار في الشأن الدولية بل هي عاجزة حتى على توفير أمن غدائها. إضافة إلى مسألة البقاء وهو الحفاظ على المصلحة الوطنية والدفاع عنها من خلال الاهتمام بمؤسسات الدولة و تطوير هياكلها.

وبهذا تعد الواقعية نظرية مهمة في فهم أسلوب القوة والسيطرة، وتوضح لنا بجلاء إستراتجية الحروب التي يعرفها العالم من جرائم وانتهاكات وقتل وتدمير، وتشكك في صحة زعم أن العولمة، التي تقوم على معطى اجتماعي تواصلي بين الأمم والشعوب المختلفة والمتنوعة، حيث ألغت المسافات والحدود بين الشرائح الاجتماعية، ووحدت العلاقات والرؤى والقيم لسماح بإيجاد التعايش تحت مما يطلق عليه المجتمع العالمي .

فاختيارنا للمذهب الواقعي على أساس أنه يركز في تحليله على الدولة والسيادة، باعتبارهما الركن المثين في السياسة العالمية، قد أثر وتأثر بالعولمة، في صيغة تفاعلية، لا يمكن الجزم في هذا الإطار، أن المذهب الواقعي انتصر في رسم معالم السياسة العالمية، ولا العولمة استطاعت أن تذيب الدول وتوحدهم ضمن نطاق المجتمع العالمي. فبالرغم من أنها حاولت أن ترتب السياسة العالمية من خلال إيجاد قالب ثقافي موحد يتخذ من الديمقراطية والليبرالية موضوعا معمما على الباقي من جهة، ومن جهة ثانية تعمل على إبراز ثقافات الهامشية والأديان بمختلف تركيباتها في المجتمعات الغير الليبرالية، باسم التعدد والتنوع عن طريق وضع نهاية للجغرافيا، بإلغاء الحدود نتيجة تطور شبكات التواصل الاجتماعي بشكله الكلي تحت مسميات الحرية والفرد.

وبهذا يبقى الاتجاه الواقعي حقلا مفتوحا وخصبا لفهم العولمة، على أساس أن الدول شيء مهم ، وأن البيئة الدولية بطبيعتها فوضوية تستدعي تدخل القوة والنظام لإعادة ترتيبها وفق مؤسسات دولية عالمية حيث " أن الأقوياء يفعلون ما تمكنهم قوتهم من فعله والضعفاء يتقبلون ما عليهم أن يتقبلوا"[9] . وبهذا نجد هذا تيار يختلف عن الاتجاه الليبرالي السائد، الذي يتبنى العولمة من الأعلى فقط ويغيب النقص والتشويه الذي يسود البنيات التحتية وممارسات المجتمع، وبهذا تعمل العولمة على إيجاد النظام الديمقراطي وذلك بتنحية الدولة واستبدالها بنظام الحكم العالمي، على أساس أن الديمقراطية لا يمكن أن تتجسد مع الدولة كعنصر واحد وفاعل ومحدد لها، بل تحتاج هذه الديمقراطية إلى حركات اجتماعية عالمية، ونظام حكم عالمي، وسوق تجارية عالمية كل هذه المحددات المذكور تعاني من الأنانية وعدم المشاركة الشفافة لباقي دول الجماهير لإسماع صوتها و رأيها في ما يجري، كي تكون فعلا ديمقراطية تشاركية تلزم الجميع احترام النظام، وتكفل الهيئات بتحمل مسؤوليتها عما يجري في هذه المعمورة، على عكس ما نجده عند "الزعماء الأمريكيين أن يركزوا على

المصلحة لا على الإيديولوجية، وأن يدركوا أن في الإمكان أن يقوم تعايش بين الدول العظمى حتى لو تضاربت قيمها و اعتقاداتها"[10].

وبالتالي تبقى العولمة كمسار لسياسة عالمية، من خلال الاقتصاد باعتباره المحدد لجميع الأشكال الحياة، وفي السياسية حيث تبقى الدول الكبرى في مجلس الأمن، أو الدول العشرين أكثر تصنيعا في العالم، هي التي تتحكم في زمام أمور هذه المعمورة، من اجل المنفعة والمصلحة على حساب الإنسان والغير.

ثانيا- عنفوان العولمة وأزمة الإنسان:

فرضت العولمة على المنطقة العربية، جملة من الإكراهات الواجب العمل بها ولامناص من التخلص منها، وسنولي اهتمام خاص لصعيد السياسي وتداعياته على الوضع العربي وعنه يراودنا السؤال التالي:

هل مفهوم الدولة تأثر وأترث فيه العولمة، بشكل الذي يجعل الدولة تزيغ وتحيد عن مقوماتها وأهدافها اتجاه مجتمعها وحاضرها في المنطقة العربية؟

لقد أترث العولمة بشكل كبير على المنطقة العربية، وذلك بتشكيك في شرعية النظام السياسي القائم والعمل على اسقاطه واستبداله بنظام ديمقراطي، وهنا نلاحظ أن جل الدول التي سقطت في هذا الفخ، لازالت تعاني الويلات من الفوضى واللااستقرار، والعنف الذي هو في نهاية المطاف تحصيل حاصل لما تفرضه العولمة علينا من قيم ومعايير نرى أنها مشجعة ومدعمة لإطالة أمد هذا العنف بشتى أشكاله. كما أن بروز مظاهر الإبادة والقتل في المناطق العربية راجع إلى سياسة المكابرة وتغليب مصالح الدول الكبرى، على حساب سعادة الانسان. وهذا ما يؤدي بنا إلى خيبة أمل العالم، نتيجة غياب مفهوم العدل، الذي يعد شرطا ضروريا وكافيا للحفاظ على معنى الانسانية "لذا نستطيع القول إن حياة كل المجتمعات الإنسانية المنظمة تتأرجح بين عالمين، حيث تأخذ مكانها بالتناوب. العالم الأول هو عالم العمل والادخار والتقتير وتحريم اعمال العنف، وخاصة أعمال القتل، والثاني هو على عكس الأول، عالم القتل المنظم والمدبر وعالم الطقوس، طقوس التدمير والهدم"[11]. فالعولمة جانبت العالم الثاني للأسف، وقدمت لنا العنف في صيغة العدل، وهذا ما يجعلنا نناقش العولمة في هذا العنصر من زاوية أخلاقية معيارية على أساس أن العدالة والعنف تنتمى إلى ميدان الأخلاق.

فالعنف والعدالة شيئان مختلفان، فهناك من يعمل من اجل العدالة بمعنى انه يعمل لما فيه مصلحة للجميع، فبهذا هو يخلق الإنسجام بين دول المجتمع الدولي ويوحد العلاقات بين الشعوب على اساس التعارف. وهناك في المقابل من يعمل على نشر سياسية العنف والإرهاب في جهة معينة في هذا العالم، وذلك عبر رعايته وتوجيه لإلحاق الأذى والألم بالإنسان وبهذا "يكشف هذا التاريخ عن أشياء عديدة. أولا أن الإرهاب شيء جاري به العمل، ونفس الشيء بالنسبة للعنف. ثانيا، من الخطأ أن نعتقد

أن الإرهاب هو سلاح الضعفاء. فكباقي الأسلحة الفتاكة يعتبر الإرهاب هو سلاح الأقوياء على الخصوص. وعندما ندعي عكس ذلك، فلأن الأقوياء يراقبون كذلك الأجهزة الأيديولوجية والثقافية التي تجعل إرهابهم يتخذ شكلا غير شكل الإرهاب"[12]. فهم بهذا لا يعملون إلا لحساب نزواتهم الحيوانية ولمصالحهم الفئوية النفعية الضيقة، وعنه سجلهم التاريخ على أنهم عنيفين ليس فقط مع الآخر بل حتى مع ذواتهم.

تنطوي العولمة أيضا على تقليل والاستهانة بمقومات مفهوم الدولة الوطنية في العالم العربي، وذلك بوصمها على أنها مركز الشر والظلم والاستبداد" فمعيار الدولة السيدة في قانوننا الدولي هو سلطتها في كل حين في إطلاق جماح العنف المنظم؟، وفي مهاجمة من تشاء وحين تشاء"[13]. وهنا ولدواعي علمية وأخلاقية، علينا إيجاد الرابط بين السياسي والاقتصادي بحيث لا يمكن الفصل بينها أثناء تحليل موضوع العولمة، لتبيان درجة الاستخفاف بمفهوم الدولة الوطنية، باعتبارها الضامن لمقدرات وخيرات الشعوب وحمايتها من الشركات الخاصة، التي تفرض قيودها على الدول الوطنية، كما أن هناك تصاعد ملفت لشركات الخاصة المحلية، التي يمكن أن يعتمد عليها كمشروع لتجسيد الصعود الليبرالي الرأسمالي، والعمل معها سويا لتقويض مقومات الدولة الوطنية والاستهتار بها، ولما لا إطاحتها وتكوين قاعدة ليبرالية تضمن الاستقرار السياسي والتبعية الاقتصادية والغذائية للأخر.

أدخلت العولمة بهذا تغيرات عميقة في نظام العالمي بغية إلحاق التغير المنشود في طبيعة الدولة نتيجة التطور الهائل والمتزايد لرأسمال النقدي التي تقوده مؤسسات عالمية تربك الدول العربية، من خلال تجاوز حدودها الإقليمية، الذي يجعلها موضوع سخرية في المحطات الدولية ويزيد الشك في شرعيتها السياسية من طرف مواطنيها. وبهذا تبقى هذه العملية كما يبرزها موران " كسيرورة لها ثلاث أوجه(عولمة، تنمية ، تغريبية)، تنتج ثروات كبيرة، لتحط من الفقر القديم بخلق طبقة جديدة متوسطة على طراز الغربي في الدول البارزة، لكن أيضا تسقط في البؤس، في كل الجنوب، ففقر صغار الفلاحين وتنقلهم إلى مدن قصديرية، هذا ينمي اللامساواة ، ويحدث ثروات ضخمة، والعكس صحيح، كما قلنا سالفا،هذا يجر إلى تدمير ثقافي، وشح في التضامن"[14]. وعنه يخرب النسيج المجتمعي، وذلك بتشكيك في مؤسسات الدولة، بتقديم مغالطات تبدد الجهد وتهدر الوقت، من خلال موضوع العلاقة بين الديني والسياسي، كما هو موجود في معظم الدول العربية.

تعد مسألة الديني والسياسي من أهم القضايا الفكرية التي يجب أن نتنبه إليها، باعتبارها معلم هوياتي وفكري دائما يستخدم، لتشكيك في تاريخ وفي حاضر وفي مستقبل الإنسان الذي يقطن المنطقة العربية. وبهذا "لا تهتم الأصولية الجديدة بالثقافة،

بقدر ما تهتم بتحديد تقنين متجانس ومتكيف مع كل مجتمع.إنها لا تؤمن بالتداخل الثقافي والتعددية الثقافية بل إنها تنكر ما هو ثقافي"[15]. وعنه تنتشر الدوغمائية والأرثوذكسية التي تجد في الحركة الأصولية المنبت الملائم والمساعد على نموها وتطورها.

بروز هذه الحركات الاصولية في العالم العربي له ما يبرره من الناحية التاريخية والواقعية، فتحمل الدول الكبرى ما يطلق عليه بمحاربة الشر في العالم ويقصدون به الحركات الأصولية المتطرفة، هو في حقيقة الامر اختراعا لعدو وهمي، تجمع جميع قواها من اجل القضاء عليه وبالتالي تكرس فكرة إلغاء الشر في العالم، نحن نرى ان هذه النظرة غير واقعية عندما ترى الشر متجسد فقط في العدو المقابل، لان هذا يحجب عنا حقيقة الشر الموجود في داخلها من جهة، ويعمل على تكريس الفوضى وتمديد أمد العنف عن طريق هذه الحركات الأصولية "إن الأصولية الجديدة مهووسة بالعودة إلى الإسلام الحقيقي، إنها تريد ان تطهر ممارسات المؤمن من كل مالا يرجع إلى الإسلام، وهي بذلك تحدد صورة مجردة للمسلم، والذي ستبقى ممارسته هي بغض النظر عن المحيط الثقافي والاجتماعي"[16] فهذه النظرة الضيقة انتصرت للأسف في واقعنا، ووجدت في الغرب المعاون والمساعد لها نتيجة " هيمنة الغرب الأوروبي على باقي العالم، الذي تسبب في كوارث حضارية... كما تسبب في تخريبات ثقافية غير قابلة للإصلاح، وفي أنواع رهيبة من العبودية. هكذا فقد انطلق العصر الكوكبي وتطور، بفعل العنف، والتخريب، والعبودية والاستغلال الوحشي"[17].

ثالثا: الغيرية والعولمة:

الحديث عن العولمة يحيلنا إلى الأنا ، بمعنى وجود مشروع ليبرالي يسعى لتعميم أنانيته على الآخرين، ويجعل موضوع المماثلة هو سيد الموقف، وذلك بعدم الاعتراف بالحدود وبالهويات و الاختلافات الموجودة والمطروحة في الواقع. وبهذا نرى المتزعمين لبرنامج الليبرالية يشككون في كل ما هو مختلف عنهم نتيجة غلبة أنانيتهم، وشدة جهلهم وعدم إدراكهم لذات الآخر، الذين يعتبرونه دائما مجهولا وغريبا، وسرعان ما يشغلون آلاتهم وعتادهم الفتاك، لتصفيته من الوجود لأنه خطر على هذا الوجود.

بهذا التقديم بين الأنا التي تمثله العولمة، والغير التي تمثله الغيرية، حاولنا في هذا العنصر ربط العولمة بالغيرية، على أساس أن هذه الأخيرة، نراها البلسم الذي من خلاله، نخفف من الآهات ومن الآلام التي رافقت مشروع العولمة، التي لا تعترف ولا تقر إلا بشكل واحد مقولب في إطار الليبرالية، التي تتبجح بها الدول الكبرى، ولا يسمح لأي كان أن يخرج من هذه الدائرة المغلقة. فالغيرية تقدم البديل عن طريق

الأولوية للإختلاف، وللغير، وللآخر، لخلق التعايش الإنساني المبنى على المسؤولية لحماية هذا الغير أو هذا الآخر.

برزت الغيرية كمفهوم فلسفي وإنساني، نتيجة الظروف التي يعيشها العالم من إختلالات ناجمة عن تصاعد العنف والحروب وزيادة حدة القتل ضد الإنسان، " عادت الأساطير والافكار لتغزونا وتستحوذ علينا وتمنحنا الحب والكراهية والنشوة والعنف. إن بشرا تحت قبضة اساطير وأفكار لقادر على القتل والموت من اجل إله أو فكرة- ومثلما كان عليه الإغريق مع شياطينهم الأسطورية والمسحيين مع شياطينهم الإنجيلية- لازالت شياطيننا الفكرية تجرفنا وتستحوذ على وعينا وتجعلنا لا واعيين مع منحنا الوهم بأننا نمتلك وعيا فائقا"[18].

التحدت عن الغيرية يلزمنا الرجوع مباشرة إلى فلسفة الوجه، الذي أوجدها ليفيناس[*]ونراها مناسبة لمعالجة العنفوان التي أتت به العولمة، من خلال قضية جوهرية في فلسفة ليفيناس، التي نراها اساسية في هذا الموضوع وهي على النحو الآتي:

فلسفة الوجه مقابل عولمة القتل والعنف والدمار التي عرفتها البشرية.

نحاول أن نحاور العولمة من خلال ما أورده ليفيناس على أن مهمته لا تنحصر في تكوين أخلاق، بقدر ما يحاول أن يبحث عن المعنى، هذه المقولة التي نجدها تمعلم الطرح الفلسفي ليفيناسي، وهذا هو الحلم الذي راود ليفيناس بديمومة وبقاء المعنى، هذا المعنى الذي نريد من خلاله فهم العلاقة بين العولمة والغيرية، من أجل تبيان مواطن الضعف للعولمة ومآثر القوة للغيرية في هذا العنصر من جهة، وهذا المعنى يجسد الغير الذي هو بالفعل إيتيقا،عند ليفيناس من جهة أخرى.

تعد فلسفة الوجه من المفاهيم الأصيلة، التي انفرد بها ليفيناس في بناء صرحه الفلسفي المبني على الغير أو الوجه الآخر، الذي يربطه في شقاوته وفي تراسنداليته في نفس الوقت، وهنا يبرز الوازع الأخلاقي من خلال الوجه، في عدم الزج بنفسك في مشروع العنف والقتل والخراب . وفي مسألة الوجه يضيف بواريه أيضا أننا "أمام وجه الغير، الضعيف والعاري، تولد عاطفتين متناقضتين، العنف (قتل الغير) طيبة (التي تهتم بالغير)"[19].فالرهان ليفيناسي هو تأهيل الطيبة ضد القتل، ويشير إلى أولوية الأخلاق الذاتية، التي هي شرط أساسي لإيجاد العدالة.

فالغيرية تقر باللاعنف والآخر التي نجدها مغيبة ومهمشة في دواليب العولمة، وعلى هذا الاساس ركزنا على اللاعنف الذي يراه ليفيناس من خلال الكلام والعقل، اللذان بواسطتهما نخلق التفاهم والتعايش وهذا هو الشيء المغيب في العولمة، حيث يستبدل الكلام والعقل بالسلاح والقتل لا لشيء سوى لأن هذا يخالفني ومغاير عني.

المراجع:

*- مفهوم يستخدم في المختبرات الفيزيائية والكيميائية ، يقوم على التجربة التي تضع المواد المراداختبارها على النار فعندما تنصهر، تفور هذه المواد لكنها تبقى وتحافظ على رواسبها ومكوناتها الأولية.

[1]- في هذا العنصر نؤكد على العولمة، لان السبب الوحيد الذي ساهم في ميلاد هذه الثورات في العالم العربي، والتي سميت بالربيع العربي، راجعة بالدرجة الأولى إلى كثرة وتعدد وسائل الاتصال من خلال قنوات الإعلامية التي تضلل الرأي، نهيك عن شبكات الانترنيت، هذا على مستوى الاتصال، أما على مستوى العسكري فالكثير من هذه الثورات جاءت على يد تدخل القوة العسكرية والإستخبارتية لتسريع إسقاط النظام وزج بهذه الدول في حالة الفوضى الخلاقة، التي تسمح بالأخير في رسم معالم وأفق جديدة للجغرافيا الدولية. كما تتخذ على صعيد المنظمات الدولية، صبغة عقابية للدول، كهيئة الأمم المتحدة، ومنظمة العفو الدولية...الخ. وهذه كلها ملامح تعبر عن بروز ما يسمى بالعولمة التي مازلت في شكل البروز والتهيؤ والتشكل.

2- جون بيليس ، ستيف سميث، عولمة السياسة العالمية ، ترجمة مركز الخليج لأبحاث، ط1، 2004، ص27.

- ووالت روستوWalt Whitman Rostw (1916 -1986) : ولد في نيويورك من عائلة روسية يهودية استقرت بالولايات المتحدة الأمريكية، من أهم المنظرين الاقتصاديين والسياسيين الذين اهتموا بنظرية التحديث والتطور الاجتماعي على الرغم من الانتقادات التي وجهت له ، والذي كان يسعى إلى فهم الصعوبة في عدم تعميم النموذج التنموي الغربي في المناطق الجنوبية كأمريكا اللاتينية وأفريقيا وأسيا. اعجب الرئيس الامريكي كينيدي بطرحه، وعينه كمستشار خاص لشؤون السياسية من أهم المراجع التي أوجدها والتي تعالج مسألة نهاية الإيديولوجية هي على النحو الآتي:

- *Une politique américaine en Asie* , avec RW Hatch, 1955.
- *Le décollage en croissance auto-entretenue* EJ, 1956,
- *Une proposition: la clé pour une politique étrangère efficace* , avec M. Millikan, 1957.

3-Edgar Morin, La Voie pour l'avenir de l'humanité, Fayard,2011, p 102. « Le processus de mondialisation économique est devenu globalisation, après 1989, avec l'expansion universelle de l'économie néolibérale »

4- نحن في هذا الحقل نميز بين السياسة العالمية، والسياسة الدولية، والعلاقات الدولية :
السياسة العالمية كل ما ينطوي تحتها من عمل سياسي بشكله الشمولي ومن بينها السياسة الدولية، التي تهتم بالبحث والتنظير في المجال السياسي، وتبدع البراديغمات السياسية التي تراها أنموذجا لتطبيقها في العالم. والعلاقات الدولية أو السياسية والتي تكون محصورة في نطاق ضيق، حيث تتخذ شكل علاقات بين الدول، لتوضيح موقفها ولبناء تكتلات أمنية واقتصادية الواجب ترسيخها بين الدول والأمم.

5- اختيارنا للمذهب الواقعي له ما يبرره على متن هذه الورقة، إلا أنه توجد أطر نظرية أخرى لسياسة العالمية ونخص منها :
- نظرية النظام العالمي ترى أن النظام العالمي هو من يحدد الأشياء على أساس أن تاريخ العالم شهد حدتين بارزين، إمبراطوريات العالمية، والاقتصاديات العالمية، ومنها النظام الرأسمالي الذي ظهر في أوروبا خلال القرن السادس عشر.
-الليبرالية تقوم على معطى السلام الدائم مع الدول التي تتبنى وجهات طرح ليبرالية وتتحول من السلام إلى الحرب والقيود على الدول الي تخالف ليبراليتها وتكفر بها.

6- أهم الأطر الفكرية والنظرية لتيار الواقعي:

1-1 الواقعية البنيوية الأولى: تركز على الطبيعة البشرية وأبرز منظريها ثوشيديديس (حوالي430-400 ق.م) الذي أرخ للحرب البيلوبونيزية والتي جرت بين أكبر قوتين في زمانهما هما اثينا واسبرتا، إضافة إلى الحرب الثانوية بين اثينا والميلوسيين واللذان اصطدمتا حول منظومتين معرفيتين مختلفتين، النظرة الواقعية التي تمثلها أثينا والتي تقوم على. والنظرة المثالية المتبنية من الميلوسيينن التي تقوم على البعد المثالي والأخلاقي، الذي يتخذ من العدل والإنسانية سندا شرعيا، في محاورتهم لقوة وواقعية أثينا. لكن في نهاية الأمر انتصرت القوة على الأخلاق والقانون والإنسانية لأن هذا المنطق بدأ يفرضه صيته إلى وقتنا الحالي والذي يعرف بحوار ميلوس، حيث تمكن الأثينيون من إخضاع الميلوسيين إليهم وقبول القانون المفروض عليهم بقوة الحديد والسيف وجعل من القوة هي المحدد لواقعية الأشياء.

2-1 الواقعية التاريخية:يعتبر ميكيافيلي رائدها ومنظرها حيث يجمع بين واقعية القوة ل ثوشيديديس (حوالي430-400 ق.م)، والأخلاق بغية خلق جو سياسي مليء بالترغيب والترهيب في آن واحد لسيطرة على الدول الأخرى.

3-1 الواقعية البنيوية الثانية:يعمل هذا الإطار على تجاوز الطبيعة البشرية ويربطها بمسألة النظام الذي هو مسئول عن الفوضى، فالإشكال لا يقع في الطبيعة البشرية، بقدر ما يقع في بنية الأنظمة التي تقوم على إحلال الفوضى و اللااستقرار داخل المناطق المتنازع عليها.

4-1 الواقعية الليبرالية:وضع حد للفوضى من خلال ردع الدول الكبرى لدول، التي تعمل عل نشر الفوضى، خلال تسطير منظومة قانونية ردعية تعمل على استقرار المنطقة، ويكون الخوف من الهجوم التي تشنه الدول الكبرى هو المعيار الحازم في تثبيت الأمور، وتغيب نسبيا مبادئ السيادة ، والحرية ، وعدم التدخل في الشأن الداخلي.

7- برتراند بادي، بيار بيرنبوم، سوسيولوجيا الدولة، ترجمة جوزيف عبد الله، وجورج أبي صالح، بيروت، مركز الانماء القومي، دون تاريخ، ط1،ص10.

8- جون بيليس ، ستيف سميث، عولمة السياسة العالمية ، ترجمة مركز الخليج لأبحاث، ط1، 2004، ص07.

9- المرجع نفسه، ص228.

10- المرجع نفسه، ص228.

11- غاستون بوتول، عنف الإنسان أو العدوانية الجماعية، ترجمة نخلة فريفر، معهد الإنماء العربي،1989،ص07.

12- نوام تشومسكي، النمو الجديد للحضارات ، لوموند2001/10/03.

13- غاستون بوتول، عنف الإنسان او العدوانية الجماعية،المرجع السابق،ص09.

14- Edgar Morin, La Voie pour l'avenir de l'humanité, Fayard,2011, p 102. « Le processus à trois faces (mondialisation , développement, occidentalisation), en produisant de grandes richesses, a réduit d'anciennes pauvretés crée une nouvelle classe moyenne à l'occidentale dans les pays émergents, mais il a aussi dégradé en misère , partout dans le sud , la pauvreté des petits paysans déplacés dans d'énorme bidonvilles, il a accru les inégalités, engendre d'énormes fortunes et de non immenses infortunes, et, comme nous l'avons déjà dit, il a entrainé destruction culturelles et décroissances de solidarités ».

15- أوليفيي روا،الاسلام المعولم،ترجمة عزيز لزرق، مركز طارق ابن زيد،2004،ص126.

16- المرجع نفسه،ص125.

17- إدغار موران،تربية المستقبل،المرجع السابق،ص59.

18-إدغار موران، المرجع نفسه،ص30.

*- نشير هنا إلى أهم المعالم والروافد الفكرية التي ساعدته في تكوين ذاته وهي:

- المنظومة الأدبية الروسية في القرن التاسع العشر بوشكين ودوستويفسكي، وعلى الأخص قضية المسئولية تجاه الآخر في مؤلفات دوستوفسكي والتي نهل منها الرجوع إلى كبار الكتاب أفلاطون وديكارت.
- إنتقاله من ليتوانيا إلى فرنسا وتأثره بنظرية الديمومة عند برغسون.
- إنتقاله إلى ألمانيا لمزاولة للدكتوراه عن هوسرل 1930 كما قرأ كتاب الوجود والزمن لهايدغر.
- وقوعه في الأسر وقتل معظم أفراد عائلته في ليتوانيا وهذا ما جعله يوجد كتاب الوجود 1947.
- الإرث التلمودي الذي ورثه من تنشئته التربوية، الذي أنضجته، والتي بها استطاع أن يحضر فلسفة سخية، دائعة الصيت لمعنى الحياة.

19-François poirié, Emmanuel Levinas, essais et entretiens, Actes sud,1996,47« Face au visage d'autrui, faible et nu, deux sentiments naissent contradictoires :la violence (meurtrir autrui), la bonté,(prendre soin de lui) ».